كلمةٌ مُنصِفةٌ في عَصرِ العَوْلَمة

مانويل كاستلس(*)

شكرًا لكم، وطابَ صباحُكُم!

لا يخفَى علينا احتدامُ المواجهةِ المتزايد بينَ الغربِ والإسلامِ، وذلك على الرَّغمِ مِنْ أنَّ كِلا المُصطَلَحَينِ يشُوبهما الكَثير مِنَ الإبهامِ والغموضِ.

يُشِير مُسَمى الغَربِ إلى قوةِ ثقافةِ (الأنجلو سكسون)، بينما يعودُ مُسَمى الإسلامِ هنا على الأُمَّةِ الإسلاميةِ مِنَ الأنظمةِ والشُّعوبِ الإسلاميةِ. ليسَتْ هذه قضيتَنا الآن، ولكن سوفَ أُوَضِّحُ في دقائقَ قليلةٍ هذا التَّحدي ومدى فاعليته، حيث يعتبر التَّحدي الأكبرَ والأخطرَ في العالمِ بأسرِهِ. وتتنوَّعُ مجالاتُ هذا التَّحدي ما بين السِّياسِي، والجُغرافي السِّياسِي، وعلى الرَّغمِ مِن ذلك يأخذُ الاختلافُ الثَّقافي النَّصيبَ الأكبرَ من هذا التَّحدي.

وبالعودةِ إلى أُصولِ هذا الاختلافِ نجدُ أنَّ الغربَ مارسَ (الإمبريالية)، والاستعمارَ الجديدَ في مُعظمِ الدُّول الإسلاميةِ لأعوامٍ عديدةٍ. وبدراسةِ التَّاريخِ الاستعماري نجدُ أنَّه لكي تحتلَّ مكانًا جغرافيًّا ما، فعليكَ أَنْ تكونَ متفوقًا عليه ثقافيًّا، وبمقتضى ذلك فإنَّك تمحو ثَقافةَ الدُّول التي يُرادُ استعمارها قبلَ أَنْ تَنشرَ بها ما ترغبُ مِنَ الحضارةِ والثَّقافةِ الخاصةِ بِكَ، وهذا هو الصدامُ الحضاريُّ الحادُّ، وفي اعتقادي أنَّ الكاتبَ الكبيرَ «إدوارد سعيد» وصفَ بصورةٍ دقيقةٍ في كتاباتِهِ هذا الاختلافَ؛ حيثُ يوجدُ هناكَ خياراناِ أمامَ الإنسانِ: إمَّا أَنْ يكونَ مقهورًا، أو حضاريًّا.

هناكَ العديدُ مِنْ حالاتِ التَّسامحِ والتَّعايشِ السِّلمي بين أصحابِ الدِّياناتِ والثَّقافاتِ المختلفةِ. وتجدرُ الإشارةُ هُنا إلى «مدينةِ قُرطبةَ» حيثُ سادَ جوٌّ مِنَ التَّسامحِ والتَّعايشِ السِّلمي بينَ الإسلامِ والمسيحيةِ واليهوديةِ، وذلكَ في ظِلِّ الحُكمِ الإسلاميِّ للمدينةِ، بيدَ أنَّه بمجردِ أَنْ حَكَمَت المسيحيَّةُ غَابَ هذا التَّسَامحُ، وحلَّ محلَّه الاستبدادُ والظُّلمُ، وشَرَعَت الكَنِيسةُ الكَاثُوليكيةُ ومؤسساتُها في عملياتِ التَّعذيبِ المُمَنهجِ والإرهابِ والإبادةِ على أُسُسٍ دِينيةٍ، وذلكَ على مستوى أرجاءِ الإمبراطوريةِ الإسبَانيةِ.

ولا يَسَعُنا هُنَا إلا أَنْ نَقولَ إنَّ التَّسامحَ وعدمَ التَّسامحِ بينَ الأديانِ هو نتاجُ التَّأثيرِ المتبادلِ بينَ الأديانِ المختلفةِ والقُوى السياسيةِ والاقتصاديةِ المختلفةِ. وأَذكرُ في هذا السياقِ مكانًا مِنْ أَروعِ الأماكنِ على مستوى العالمِ قاطبةً ألا وهو (كاتدرائية إيلي) الواقعةُ بالقربِ مِنْ مدينةِ (كمبريدج) حيثُ ينتابُكَ شعورٌ غريبٌ بمجردِ وصولكَ إلى المكانِ حيثُ التماثيلُ المهدَّمةُ التي تنتشرُ حولَ البناياتِ، ويَرجعُ ذلكَ إلى عَصرِ الإصلاحِ الذي يَرجعُ تاريخهُ إلى القَرنِ السَّادسَ عشرَ، حيثُ كانَ هناكَ تَوَجُّهٌ عامٌّ

للقضاءِ على المذهبِ (الكاثوليكي). وفي الحقيقةِ، فإنَّ مصطلحَ «التَّعايُشِ» مازال غريبًا بعضَ الشَّيء.

وأَذكرُ اللقاءَ الذي تَمَّ البارحةَ، حيثُ كُنتم في (القصر القديم: صالة الخمس مئة Palazzo Vecchio Salone Dei Cinquecento) لكي نتعرفَ على التاريخِ المليءِ بإزهاقِ الأرواحِ وعملياتِ القتلِ، يمكنك النَّظر إلى الرُّسوماتِ الموجودةِ على الجدرانِ، وستدركُ بأنَّ القاسمَ الوحيدَ المشتركَ بينَ أُوروبا على مدارِ ألفِ عامٍ هو قتلُ الشعوبِ لبعضها البعض، وعلى الرَّغمِ مِنْ ذلكَ نحنُ هُنا الآن نستطيعُ العيشَ مَعَ بعضِنا البَعض، بغضِّ النَّظرِ عن ما حدَثَ في حُرُوبِ البَلقانِ، والقَتلِ في أوكرانيا، وعدمِ التَّسامحِ الذي استمرَّ على طولِ التَّاريخِ.

ولكن هناكَ تساؤلٌ: ما الذي نعنيهِ تحديدًا بالتعايشِ معَ بعضِنا البعضِ؟ مَن يعيشُ معَ مَن؟

هناكَ عالَمٌ واحدٌ فقط نعيشُ فيهِ، ومِن لوازمِ تعريفِ كلمةِ «العَولمةِ» أنَّه كلما زادتِ العَولمةُ زادَ التَّفرُّقُ. وقد قمتُ بدراسةِ ذلكَ بالتَّفصيلِ، ووجدتُ أنَّ التَّمسُّكَ بالهويةِ قد زادَ بصورةٍ كبيرةٍ عَن ذِي قَبل، وقد زادَ أيضًا التَّمسكُ بالهويةِ الدِّينيةِ، وبالتالي إذا استمرَّ الاختلافُ فيما بينَنَا على كافةِ الأصعدةِ الاقتصاديةِ منها والثقافيةِ؛ فإننا أمامَ خيارينِ وهما: إمَّا أن نعيشَ معَ بعضِنَا البعض في سلامٍ، أو نُدمِّرَ بعضَنا البعض.

يَسهلُ علينا أَنْ نقولَ بإننا يجبُ أن نتعايشَ معَ بعضِنَا البعض؛ وذلكَ لأننا - كأجناسٍ بشريةٍ - لدينا الاستعدادُ للتَّدميرِ الذَّاتي.

كما يَنبَغِي أن نُفرِّقَ بينَ أمرينِ من حيثُ الحياةُ معًا: الحكوماتُ الغربيةُ والحكوماتُ الإسلاميةُ من ناحيةٍ، والحكوماتُ الغربيةُ والشعوبُ الإسلاميةُ مِن ناحيةٍ أُخرى، كما يَنبغِي أن نُوَضِّحَ للمجتمعاتِ بأنَّه يمكنُ تعايشُ الشعوبِ ذاتِ الثقافاتِ المختلفةِ والدِّياناتِ المُختلفَةِ.

افسحوا لي المجالَ لأوَضِّحَ الفرقَ، في ضوءِ العلاقةِ بينَ الحكوماتِ الغربيةِ والإسلامِ نجدُ أنها قائمةٌ على المصلحةِ، حيثُ تكمنُ المصلحةُ مِن وجهةِ نظرِ الغربِ في الحفاظِ على البترولِ الخاصِّ بها في أرضِ العربِ، والذي يُمتلَكُ من قِبَل العربِ، وفي حِمَايةِ إسرائيلَ، ووُجودِ قُوىً سِيَاسِيَّةٍ خَارِجيَّةٍ تتحكمُ في هَذِه الدُّولِ الإسلاميةِ بهدفِ الحفاظِ أيضًا على مصالحها في هذه الدُّولِ.

ومن أجلِ حمايةِ هذهِ المصالحِ، فإنَّ فكرةَ فرضِ التَّأثيرِ في منظومةِ القِيَمِ في البُلدانِ الإسلاميةِ مِن قِبَل الغربِ لأجلِ الهَيمنةِ الثَّقافيةِ تُسَوِّغُ اللُّجُوءَ للتَّقاتلِ.

ونعلمُ أنَّ هذا في الآونةِ الأخيرةِ مُتجَذِّر في نظرياتِ الفيلسوفِ السياسي (ليو شتراوس Leo Strauss) الأستاذِ بجامعةِ (شيكاغو) بالولاياتِ المتحدةِ، والذي كان

لتلاميذهِ دورٌ بارزٌ في الولاياتِ المتحدةِ، والدَّورُ البارزُ في التخطيطِ الإستراتيجي لغزوِ العراقِ.

الفكرةُ في غايةِ البساطةِ؛ ثمةَ فقط حضارةٌ واحدةٌ هي الأصلحُ للجنسِ البَشَري وهِيَ الحضارةُ اليهوديةُ المسيحيةُ؛ وعليهِ فإنَّ أفكارَ التَّقاربِ والهيمنةِ تنبعُ في واقعِ الأمرِ مِن بُنيانٍ فِكريٍّ وثقافيٍّ.

قِيَمُنا هِيَ الأفضلُ، ومِن ثَمَّ إذا لم تَتَقبَّلها الشُّعوبُ، فإمَّا أَنْ نُقنِعَهم بها أو نفرضَها عليهم بِالقوَّةِ، بَيدَ أنَّ هذا في واقعِ الأمرِ تَسويغٌ (أيديولوجي)؛ فمِن حيثُ الواقع فإنَّ الفَوضَى التي تُوجدُ اليومَ في العالَمِ العربي بالشرقِ الأوسطِ قد تمخَّضَت عن سِلسلةٍ مِن الهجماتِ بإيذاءِ الأنظمةِ العلمانيةِ، فنظامُ «صَدَّام حُسَين» الدَّمَوي والدكتاتوري كان نظامًا علمانيًّا، ولم يَكُن نظامًا إسلاميًّا بأيِّ حالٍ، وكذا الأمرُ بالنسبةِ لليبيا وسوريا.

ونحنُ الآن نعلمُ أنَّ التَّذَرُّع بحيازةِ أسلحةِ الدَّمارِ الشَّامِلِ وحمايةِ حقوقِ الإنسانِ ليسَ سِوى زيفٍ قد تَمَّ تفنيدُهُ مرارًا، بل إنَّ التَّذَرُّع بحمايةِ حقوقِ الإنسانِ هو الأشدُّ نفاقًا على الإطلاقِ مِن قِبَل الدُّولِ الغَربيةِ، فالولاياتُ المتحدةُ وغيرُها مِنَ الدُّولِ الغربيةِ لم تُحرِّك ساكنًا بشأنِ أكبرِ جرائمِ تطهيرٍ عرقيٍّ شهدها التَّاريخُ المُعاصرُ في «رواندا».

ما أُريدُ أَنْ أُشَدِّدَ عليهِ هُنَا هُو أَنَّ الحُكوماتِ الغربيةَ تربِطُهَا صداقاتٌ قويةٌ بحكوماتٍ الدولِ الإسلاميةِ كالمملكةِ السعوديةِ وباكستان، بل في واقعِ الأمرِ يتمخضُ تعاونهما عَن تَوليدِ كياناتٍ كـ «القاعدة» و«طالبان» و«ابن لادن» والتي كان الهدفُ من ورائِها إنهاكَ الإتحادِ السوفيتي، بيد أنَّ السِّحرَ أَبَى إلا أَنْ ينقلبَ على الساحرِ.

بل إنَّ الحكوماتِ الغربيةَ على صداقةٍ بحكومةِ أندونيسيا التي هي أكبرُ دولةٍ إسلاميةٍ في العالمِ. وأُشَدِّدُ على أَنَّ هذه الصداقةَ على مستوى النُّخبِ والحُكُوماتِ.

وعليه؛ فإنَّ ذاك التَّدَخُّلَ الإستراتيجي هو الذي ولَّدَ رَدَّ فعلِ الشُّعُوبِ في البُلدانِ التي أصابها الدَّمارُ بِسَببِ التَّدخُّلِ العَسكَريِّ لِسَببٍ أو لآخرَ، وَرَدَّةُ الفِعلِ تلكَ ضِدَّ الأنظمةِ والجيوشِ الغازيةِ هو ما نجمَ عنهُ ما يَبدُو عليهِ أنَّه مواجهةٌ إسلاميةٌ، بَيدَ أنَّها في الواقعِ ليسَتْ كذلكَ، إنها غَضْبَةُ الشُّعُوبِ التي تَجدُ في الإسلامِ الملاذَ الذي تكفُلُه كُلُّ الأَديانِ عندَ اشتدادِ الكربِ.

الحلُّ للوضعِ الرَّاهنِ: كُفُّوا عن التَّدخُّلِ في شُئُون الدُّولِ العربيةِ والإسلاميةِ، ولا تعبثوا بِمُقَدَّراتِها، فكلُّ تَدَخُّلٍ كانَ يزيدُ الأمرَ سوءًا لاسِيَّما ما كانَ مُتَذَرِّعًا بِحمايةِ حقوقِ الإنسانِ.

إلا أنَّ التَّدخُّلاتِ، أو بالأحرى التَّدخُّلاتِ التي اكتسبت طابعَ الرياءِ، في حقوقِ الإنسانِ أَدَّت إلى تفاقُمِ الأُمورِ، ومِن ثَمَّ فعليكُم التَّوَقفُ عنِ التَّدخُلِ.

ولكنَّ المشكلةَ هُنَا أنَّه كُلما أَرادَ الغربُ إعدادَ حركةٍ لوقفِ العدوانِ، وُجدَت صعوباتٌ بِسببِ أشياء مثل «داعش» و«الإرهابِ» ومَا إلى ذَلكَ، وهو مَا يأخُذُنا إلى المُشكلةِ الثَّانيةِ المُتمَثلَةِ في مدى إمكانيةِ تحقُّقِ المواطنةِ بين المسلمينَ في أوروبا ومواطني أوروبا الأصلِيِّينَ. نعلمُ أنَّ الموقفَ سيِّئٌ للغايةِ، ونعلمُ أنَّ البعضَ يتحدَّثُ عنِ الهجرةِ، ولكِنْ هناك مسلمون قد وُلدوا في فرنسا وألمانيا وإيطاليا، هذه المشكلةُ لها شِقَّانِ:

أولًا: نعلمُ أنَّه لا بُدَّ دَائمًا مِن وُجودِ كَبشِ فداءٍ لأي أَزمةٍ اقتصاديةٍ، وهذا الكبشُ يُستخدمُ مرارًا وتكرارًا، وبالتالي فإنَّ كراهِيةَ الأجانبِ والعُنصريَّةَ إنَّما تأخُذُنا بعيدًا عنِ الهَدَفِ المُتَمثِّلِ في علاجِ سببِ أزماتِ الأوروبيينَ، ويُعزِّزُ هذا الاتجاه السِّياسِيُّونَ والأحزابُ السِّياسيةُ في أوروبا، ويَشِيعُ في «اسكاندنافيا» وكذلك في إيطاليا مُستَغِلِّينَ رهبةَ بعضِ المواطنينَ الأوربيينَ مِن الأجانبِ.

إنَّ الوضعَ بِالنسبةِ للمسلمينَ، أو لمعظمِ المسلمينَ في غربِ أوروبا، هو أنَّهم يعانونَ مِن التَّمييزِ والتَّهمِيشِ بما يَجعلُهم في عُزلةِ مَن يَعيشُونَ في مناطق «الغِيتُو» السَّكَنيةِ، ويؤدي ذلكَ إلى تَراكمِ المُشكلاتِ الاجتماعيةِ المُنبثقةِ عَن خَليطٍ مِن كُلٍّ مِن التَّمييزِ الثَّقَافي والتَّمييزِ الاجتماعي مِن جَانبٍ، والتَّهميشِ مِن جانبٍ آخر، وكلُّ ذلكَ يستحيلُ أَنْ يتأتى مَعهُ الإدماجُ والتَّكاملُ الاجتماعي مِن خلالِ الأنشطةِ الثَّقَافيةِ، إلا أنَّ مثلَ هذا الدَّمجِ يمكنُ تفعِيلُهُ بواسطةِ الشَّبابِ مِن خِلالِ المدارسِ والموسيقى والألعابِ الرِّياضيةِ، فكما تعلمونَ يُعتبرُ نادي «برشلونة» الرِّياضي عاملَ دَمجٍ رائعٍ بينَ المسلمينَ وغيرِ المسلمينَ، وفي إسبانيا .. نادي «فيورنتينا» لا يؤدي نفسَ الوظيفةِ، ولكن لا بأسَ به.

وفي النهايةِ لا بُدَّ أن ينبثقَ هذا التَّكاملُ الاجتماعي عن عملِ الشَّبابِ؛ ذلكَ لأنهم الفَصِيلُ الوحيدُ القادرُ على بذلِ الجهودِ الكبيرةِ، ففي إسبانيا عندما خرجَ الشَّبابُ للوقوفِ ضدَّ الظُّلمِ، طالبوا بعددٍ مِن التَّغييراتِ، نعلمُ أنَّ الموقفَ قد صارَ مُعقَّدًا للغَايةِ فيما بعدُ، ولكنَّ الأمرَ الذي أودَّ التَّنويهَ إليهِ هو اكتشافُ الإسبانيينَ إمكانيةَ حدوثِ التَّضامنِ بينهم وبينَ الشَّبابِ العربِ. وكانَ أوَّلَ ما فعلوهُ عقبَ احتشَادِهم في ميدانِ «بلازا كاتالونيا» هو أنهم أطلقوا على الميدانِ اسمَ «ميدانِ التحريرِ» وحدثَ الأمرُ نفسُهُ عندما احتلَّ متظاهرو «وول ستريت» الشَّارعَ، وحاولوا أن يُطلقوا عليه اسمَ «ميدانِ التحريرِ» وأُطلِقَت دعواتٌ على شبكاتِ (الإنترنت) للمطالبةِ بالقتالِ مِن أجلِ «الكرامةِ» وهي نفسُ الكلمةِ المستخدمةِ في العالمِ العربي ,جَرَى ترديدُها في أمريكا وإسبانيا مرارًا.

أُريدُ الآن أَنْ أختتمَ حديثي بِجملةٍ واحدةٍ فيما يتعلقُ بِوجودِ أزمةٍ روحيةٍ: الميزةُ الكبيرةُ هُنا أنَّ لدينا مجموعةً مِن العلماءِ المفكرينَ، وبِرَغمِ كلِّ التَّحليلاتِ العقليةِ فإنَّه

ما زِلنَا نثقُ بِاللهِ، وما زِلنَا نُؤمنُ بأنَّ قوةَ الدعاء هي قوةٌ فاعلةٌ، ونؤمنُ بِقوةِ الحُبِّ لبعضِنَا البعض، وأنَّ الدعاء هو الشيءُ الوحيدُ الذي نستطيعُ أَنْ نطلُبَهُ مِن أَنفُسِنَا.

شكرًا لكم!

* * *